اخونا سليم

لما توفي شاهين بك مكاريوس سنة ١٩١٠ نعاهُ الدكتور صرُّوف — رحمة الله عليهما — في المقتطف بعنوان « اخونا شاهين » فقال : — « اصبحنا نحن الثلثة اصحاب هذه الجريدة اشبه الناس في اعتبار الجمهور بالشخص الواحد ، منا ثلاثة اشخاص . فكم من كتاب يأتينا كلَّ يوم معنوناً باسم « الدكتور صرُّوف نمر » او باسم « نمر مكاريوس » كأنَّ لا فرق في اعتبار الكاتب بين يعقوب صرُّوف ، وفارس نمر ، وشاهين مكاريوس . وكثيرون من الذين يفرقون بيننا ويعلمون اننا ثلثة لا واحد ، يحسبوننا ثلثة اخوة ابناء اب واحد وام واحدة ويظهرون من العجب والدهشة ما لا يوصف ، كلما علموا اننا ثلثة رفقاء لا قرابة بينهم ولا نسب . . . »

تآخى الآباء وتآزروا ، فلا عجب في ان يمتدَّ اثر تآخيهم وتآزرهم الى الابناء ومن يلي الابناء من الاحفاد مع ان الاسر الثلاث ما زال حتى الساعة لا يربط بينها رابطة نسب . وكذلك نرى اليوم وقد قضى الموت علينا بنعي سليم مكاريوس الى قرَّاء المقتطف ، ان ادل كلام على مكانته في نفوسنا ، وحسرتنا على فقده ، هو قولنا : « أخونا سليم »

***

نشأ سليم مكاريوس في بيت علم وفضل واجتهاد فطمح من صباه الى التشبه بأساطين العلم وكان له من ذكائه النادر ونشاطه العجيب ما بعث فيه الرغبة وأحيا فيه الامل فطلب العلم في مدارس بيروت ومصر ونبغ بين اقرانه فكان أنجب طلبة جامعة بيروت الاميركية الى العام الذي أتمَّ فيه دروسه فيها . وعلق الفلسفة وأحب بحوثها حبًّا جمًّا وأحاط بمذاهبها ولا سيما الحديث منها وآثر من هذه فلسفة هربرت سبنسر الفيلسوف الانكليزي فكان يعرف اصولها وفروعها معرفة تامة فلما زار صاحبها في داره في مدينة برايطن بانكلترا وحادثه ولم يكن قد جاوز الحادية والعشرين دهش الفيلسوف لسعة علمه وصحة مداركه واستلاكه لناصية الانكليزية وأعجب بهذا الشاب الشرقي الأسمر اللون فلما فارقه الفقيد ليذهب الى لندن وباريس اعطاه كتباً من كتب التعريف والتوصية الى جماعة من خيرة اعضاء نادي الاثينيوم وهو ندوة العلماء والكتَّاب بلندن فتوصل من هناك الى معرفة طائفة من كبار رجال العلم والصحافة كالبرنس كروبتكين والمستر سدني وب (اللورد باسفلد الآن) وقرينته والسر راي لنكستر والطبيب السر لودر برنتن والسر ميخائيل فوستر الفسيولوجي وشارل جيد العالم الاقتصادي الفرنسي وغيرهم

ودرس الحقوق في مدرسة الحقوق الفرنسية واجتاز امتحاناتها السنوية في فرنسا بنجاح عظيم

فلما اراد اجتياز امتحان المحاماة كان بين ممتحنيه المرحوم رشدي باشا فطرح عليه سؤالاً عادياً فأجابه الفقيد عليه وقال لرشدي باشا لماذا لا تتفضل بأسئلة أصعب من هذا السؤال السهل فدهش رشدي باشا وابتدره بأسئلة عويصة فكانت اجوبته عليها في منتهى الاحكام ومن ذلك الحين اتخذه صديقاً وقدمه الى المرحومة قرينته الاولى . ولقي مثل هذه العناية من السر ملكم مكدونلد المستشار القضائي في ذلك الحين ففتح له أبواب مكتبته يطالع فيها ما يشاء ويأخذ منها ما يشاء

وبعد ما اشتغل بالمحاماة مدة رغب عنها الى الصحافة وقد نشأ في وسط صحافي فانضم الى قلم تحرير المقطم ثم عين مكاتباً في مصر لجريدة الديلي مايل فظل يكاتبها نحو عشرين سنة ودعته ادارتها الى ان ينتظم في هيئة تحريرها بلندن فلبى الدعوة ، وقدر لورد نورثكليف صاحب الديلي مايل كفاءته واخلاقه فانزله منزلة رفيعة من الاعتبار وبلغ من دالة الفقيد عليه انهُ كان يستعمل مكتب اللورد الخاص كأنهُ مكتبهُ بل فعل ما لم يتفق مثله في ادارة جريدة كبيرة فانهُ كتب مرة مقالة عن « كسوف الشمس » وبعد ما دارت آلات الطباعة مدة خطر له ان يبدل عبارة في المقالة ويثقل توقيعه من اسفل المقالة الى اعلاها فنزل الى مكان المطابع وأمر بوقف الطبع وبدل العبارة واقتضى ذلك تبديل الصفحات التي هي فيها ونشأ عن العمل ان تأخر توزيع الجريدة في شمال انكلترا . وفي الخبر الى اللورد نورثكليف فأرسل اوامر مشددة بمعاقبة من يعد مسؤولاً عن الحادث حتى ابلغه رئيس التحرير ان الآلات وقفت « بأمر مكاريوس » فعدل عن العقوبات ولكنهُ افهم الفقيد ان ما صنعه محظور لم يسبق له مثيل ولا يجوز ان يعاد . ولم ينتقل من مكاتبة الديلي مايل الا في مطلع الثورة المصرية لانهُ اختلف وهيئة تحريرها في الرأي

وعرف هناك اللورد روذرمير شقيق نورثكليف ثم اللورد بيفربروك صاحب الديلي اكسبرس وكانا يزورانه في منزله عند زيارتهما لمصر ويرحبان به في لندن ويعدانه من اصدقائهما

***

ولما كان في لندن حينئذٍ زارها الوفد البرلماني العثماني برئاسة طلعت باشا الصدر الاعظم الاسبق وكان حينئذٍ رئيساً لمجلس المبعوثان فطاف بهم الفقيد على ادارات الصحف وانشأ لهم الصالات بهيئات سياسية وعلمية وادبية واقتصادية واعجب طلعت باشا بمقدرته وتنوزه فعرض عليه ان يتقلد منصب مستشار للسفارة العثمانية في لندن فاعتذر الفقيد عن القبول بحجة انهُ يؤثر العمل الصحافي على سواه . ثم زار استانبول بعد ذلك وكان طلعت باشا قد قلد وزارة الداخلية فاحسن استقباله وكان يأخذه معه الى الباب العالي وقد اشتبك ذراعاهما واعاد طلعت باشا في استانبول ما عرضه عليه في لندن فأبى قبوله معتذراً وشاكراً . ومن الزعماء الذين توطدت صلة الصداقة بينهُ وبينهم المستر مكدونلد عرفهُ في مطلع حياته السياسية ولقيهُ لما زار مصر سنة ١٩٢١ وشرب الشاي عنده ولما زار الفقيد لندن في صيف ١٩٢٩ دعاه المستر مكدونلد الى زيارته في داره في ١٠ دوننج ستريت ا البقية في باب الاخبار السياسية ا